من رسائل الصيف

الدار المقدسة

[مهداة إلى الانسان الشاعر . .]

للأستاذ عبد الحميد يونس

أخي إبراهيم ...

قرأتُ فيما قرأت أن هُناك مرآة مسحورة لا ترى فيها نفسك في لحظة من لحظات حاضرك أو فترة من فترات مستقبلك ، ولكنك تشاهد فيها شخصك في برهة واحدة تختارها من ماضيك

وأنا الآن أتمنى كالأطفال أن أحصل على هذه المرآة ، وأن أركب في هذا السبيل ما يركب أبطال الأساطير من أهوال ، فإن عبور البحر أهون من عبور الزمن إلى الوراء ، وملاقاة المجهول آلم من ملاقاة المعلوم ، واستعادة الذي كان معك ثم ضاع ، أشهى من حصولك على ما لا ترتقبه مما هو آت !...

ودعني أسائل نفسي وقد تحققت أمنية العثور على هذه المرآة « أي لحظة من لحظات ماضيّ أريد ؟ » ... هي هذه الومضة من ومضات صباي وقد ذهبت إلى بيتنا الجديد ، فلم أنظر إليه إلا بعد أن تعليت من البناء المواجه له ذي النوافذ الشبيهة بنوافذ المساجد ، وكنت أعلم أنه مقام صاحب النظرات والعبرات[1]

هذه الدار أيها الصديق أنفقت ما يقرب من خُمس قرن خلتُ فيها صباي وسلختُ شبابي ؛ دخلتها تسابقني آمال عذاب ، وخرجت منها بذكريات أعذب !

وما أظنك نسيت البرج الذي كان يشبه أبراج المنائر حيث كنت أبشر بالطريقة الإشراقية التي تعلو على الناس وإن لم تنفصل عنهم ؛ وحيث خيّلت إلى نفسي القدرة على مطاردة الأوهام والوساوس والكشف عن الترهات والأباطيل ؛ وحيث ظننتني أستطيع هداية الضالين ، ولو كانوا من الفرسان والمهريين ؛

وحيث رأيتني أحارب إله الظلام ، فلا أكاد أصرعه حتى أراه يتسلل من الناحية الأخرى !

أو نسيت الغرفة الجرداء التي كنت أستقبل فيها وفود السكر زمراً تعقبها زمر ، وأفراداً في إثر أفراد ، والتي كنت أمثل فيها خاشعاً بين يدي الأنبياء والأولياء والقديسين ! وكيف تنساها وقد وسعت جمهورية أفلاطون وطوبى مور وجزيرة مكدوجال !

أما المقصورة ، فأنت لا تذكرها ، لأنها كانت المكان الحرام الذي مارست فيه فن الحياة ، ومهدت القصائد التي عجت بها نفسي ولم تنفرج عنها شفتاي أو يسجلها قلمي ... وجمعت فيها بين الملائكة والشياطين ، ولقيت فيها «ليليت» وبناتها ، وتاييس في انطلاقها وفي توبتها ، وأفروديت في خلابتها ؛ وسمعت فيها أعذب التنهدات وأشهى الضحكات وأعمق الزفرات ... ! هنا ، أيها الصديق ، عجمت تجاربي ، واختزنت ذكرياتي ، وحبست أوهامي ... ! هنا أديت فرائض الشاعر وشعائر الحكيم !

* * *

والخزانة الصغيرة التي كانت وكأنها « باب جحا » لا تكاد تطلب منها شيئاً حتى تراه ؟ ... الخزانة الصغيرة النفيسة التي لم يكن خادمها موكلا بغذاء البطون ، وإنما كان مختصاً بغذاء العقول والقلوب ؟ ... لقد أخذتها معي ، فبطل السحر ، وبقيت الصحائف والرفوف !

وأنت ألم تجلس معي تحت هذا المصباح ؟ أنا موجود وأنت موجود ، والمصباح كذلك موجود ؛ ولكن « التغير » صيرني شخصاً آخر ، وحولك إلى غيرك ، ونور المصباح في عيوننا الآن ليس كما كان بالأمس !

واليوم أتطلع من هذه الدار المقدسة اقتلاعاً ، فكم رددت جدرانها صلواتي ، وسمعت ابتهالاتي ، ووعت حكمتي ، وحفظت قصائدي ! وكم انشقت سقوفها عن طيف ، وانفرجت نوافذها عن خيال ، وانفتحت أبوابها حتى لعدو !

ألا قل لهذه الدار المقدسة ألا تبوح بأسرار وجداني إلا لصاحب وجدان ، وألا تطلع أحداً على خزائن تجاربي إلا إذا كان من زمرة الإشراقيين ، وألا تفتح كنوز ذكرياتي إلا لمن يصلح للقيام على البرج والمقصورة والمحراب !

(١) يقصد بيت المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي .